عبد العلي اليزمي

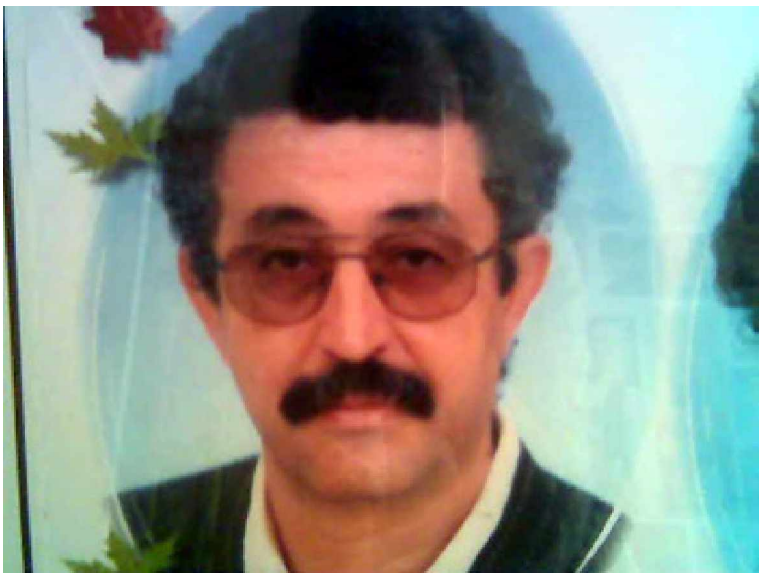

وداعا

وداعا عبد العلي.... لن ترحل عنا أبدا

تنعي علامات إلى قرائها في كل ربوع الوطن العربي وفاة رئيس تحريرها وأحد مؤسسيها الأستاذ عبد العلي اليزمي.

فقد رحل عنا يوم **15 – 06 – 2006** بعد مرض طويل واجهه بكرامة وعزة وشجاعة قل نظيرها. رحل عنا وابتسامة حزينة على شفتيه وفي العين دمعة حسرة على الذات والأولاد والأصدقاء والوطن الكبير.

رحل عنا عبد العلي ولم نصدق أن هذه الرحلة ستكون هي الأخيرة حقا، وأن القلب الكبير الذي استوطنه شعب بأكمله توقف عن الخفقان، واختفت ابتسامته الخجولة، وابتلعنا صمت الموت الرهيب جميعا.

لم تكن هذه رحلته الأولى، فقد رحل عنا مرارا، وكان في كل مرة يعود أقوى وأشد مما كان. هرب من أعين الجلادين واختفى، ثم ظهر، ثم غيبته قوى الظلام خلف القضبان عشر سنوات، مع خيرة شباب هذه الأمة، كانت تهمته " محاولة قلب نظام الحكم وإقامة دولة الفقراء " . فكان أن وضعوا على صدره نياشين أخرى لا يمكن أن تراها عيون الحقد، وظل هو مزهوا بها إلى آخر يوم في حياته.

لم ينل منه صقيع الزنزانة ولم تثنه شراسة الجلاد عن " غيه ". وخرج من السجن ليعاوده الحنين لممارسة الجنون في حب الحياة والدفاع عنها في أعين الأطفال والبسطاء وكل الشرفاء على امتداد هذا الوطن. بل أكثر من ذلك، فقد منحه السجن، عكس ما تصوروا، أشياء أخرى. لقد دخل السجن بعين واحدة وخرج منه برؤى تتسع لأحلام الإنسان كلها.

اتسعت الدائرة وزاد حجمها، لقد أصبحت الآن قادرة على احتضان أحلام الوطن الصغير والكبير والإنسانية جمعاء. وعبثا حاولوا بعد ذلك رده إلى الثقب الواحد والباب الواحدة والقيمة الواحدة. لقد أصبح متعددا، فرفض أن يكون الإنسان بعدا واحدا أو لغة واحدة: إن الإنسان متعدد بالطبيعة والأصل والمصير. أصبح " للأممية " نفس آخر.

وليس غريبا أن يكون من أكثر المتحمسين لإرث ميشيل دومونتيني. ذلك المفكر الفرنسي الإنساني النزعة الذي دافع دون هوادة عن الإنسان في كل بقاع المعمور. لقد كان شعاره دائما: حيثما كان الإنسان أنا هناك. إن السياسة التزام ومسؤولية، ولكنها لا يمكن أن تكون هي البديل لكل شيء.

لقد كان التزامه في السياسة والإيديولوجيا التزاما أخلاقيا قبل كل شيء. ولا يمكن لأية غاية في الدنيا أن تبرر الوسيلة دائما. فعندما يتعلق الأمر بالأخلاق يمكن أن نضحي بالسياسة، فلا وجود لغاية تخدم الإنسان يمكن أن تأتي من خلال وسيلة لا أخلاقية.

وليس غريبا أن تمتد علاقاته مع كل شرفاء هذه الأمة دون أن تثيره حساسية الاختلاف في الانتماء السياسي أو الفكري أو العقدي. لقد كان صديقا للجميع، لقد كان يؤمن بالإنسان خارج خانات التصنيف العرضي أو الأهوائي. ولم نشعر أننا وحدنا إلا عندما مات.

ضمن هذا الأفق الواسع كان التفكير في إصدار مجلة. لقد قر رأيه ورأينا جميعا في هيئة التحرير على أن نأتي الأشياء من بابها الخلفي. كنا في البداية والنهاية مختلفين عن بعضنا البعض في المزاج والإيديولوجيا والآراء السياسية. ولكن لم يكن عندنا من طموح سوى الإسهام، من موقع آخر، في الرقي بأمتنا إلى ما هو أفضل.

لم يختف هذه المرة، ولم نختف معه، فقط لم يعد العرضي وحسابات الأمس واليوم والغد القريب تقنعنا، هناك ما هو أفضل وأوسع مدى وأشد تأثيرا. إنها ساحة الفكر. علينا أن ننقل المعركة إلى هناك، وقمنا بذلك بأدواتنا البسيطة ورؤانا المتجددة باستمرار، وكبر مشروعنا وكبرنا نحن أيضا، وعلمنا الناس كثيرا كما حاولنا تعليمهم. وكنا وما نزال فرحين بذلك.

لقد كانت " علامات " " شيئا " من قلبه ووجدانه وضميره وحلمه، تماما كما كان إيمانه قويا بالتعدد والاختلاف وحق كل الآراء التي تمجد الإنسان وتعلي من شأنه في التعبير عن نفسها في المجتمع والفن والسياسة والأخلاق والدين.

وها هو يغادرنا، ويده على الزناد. لم ييأس، ظل صامدا صاحيا متيقظا. قد ينساه الناس جميعا، لكننا نحن أصدقاءه، نحن من عرفه خارج الأهواء والمصالح الضيقة، لن ننساه أبدا.

فوداعا عبد العلي .. لن ترحل عنا أبدا.